

الثورة الفلسطينية وأبعادها القومية في شعر أديب ناصر (نموذجاً)

د. زاهر محمد حنني

أستاذ النقد الأدبي الحديث المشارك

رئيس قسم اللغة العربية / جامعة القدس المفتوحة

بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث للغة العربية

دبي 2014

ملخص

يأتي هذا البحث الثورة الفلسطينية وأبعادها القومية في شعر أديب ناصر نموذجاً في قسمين؛ الأول: يتناول الشاعر أديب ناصر وارتباطه بالثورة الفلسطينية معبراً عنها في حياته العملية ومنخرطاً في صفوفها. أما القسم الثاني فيتناول الأبعاد القومية بوصفها فكراً ومنهاجاً في الثورة الفلسطينية عموماً، وفي شعر الشاعر أديب ناصر أنموذجاً. مع مقدمة وخاتمة تبين ما توصل إليه البحث.

مقدمة:

حظي شعر الثورة الفلسطينية - منذ منتصف القرن الماضي - باهتمام النقاد والدارسين لما أحدثه من تأثير في العامة والخاصة، وما كان فيه من تغيير في الرؤية العامة، وتأثير كل ذلك في كبار الشعراء العرب المعاصرين.

أديب ناصر واحد من شعراء الثورة الفلسطينية المعاصرين الذين عبروا عن هموم الثورة بكل تجلياتها وفي جميع مراحلها، الأمر الذي يدعو لدراسة شعر الشاعر بإلحاح في هذه المرحلة. ويأتي هذا البحث الثورة الفلسطينية وأبعادها القومية في شعر أديب ناصر نموذجا في قسمين؛ الأول: يتناول الشاعر أديب ناصر وارتباطه بالثورة الفلسطينية معبرا عنها في حياته العملية ومنخرطا في صفوفها. أما القسم الثاني فيتناول الأبعاد القومية بوصفها فكرا ومنهاجا في الثورة الفلسطينية عموما، وفي شعر الشاعر أديب ناصر أنموذجا. مع مقدمة وخاتمة تبيين ما توصل إليه البحث.

راجيا المولى - عز وجل - أن يتم هذا البحث، الذي أرجو أن يقدم خدمة جلية لصاحبة الجلالة اللغة العربية، وأن يزيل بعض الإبهام الذي لحق بمفاهيم مرتبطة بالثورة الفلسطينية.

أولا: أديب ناصر ابن الثورة

في بير زيت التي حظيت بأن تكون بلدة الشعراء والمبدعين⁽¹⁾ ولد الشاعر أديب ناصر في العام الذي اشتعلت فيه أوار الحرب العالمية الثانية، وتلك المصادفة رافقت آثارها الشاعر كما رافقه عيد ميلاده، ولئن كانت آثار الحرب العالمية الثانية قد انعكست على العالم بأسره، فإن العرب أول من يدفع فواتير الحروب في عالمنا المعاصر، فهل يستمر أديب ناصر بدفع ثمن ولادته في ذلك العام بأنه ما زال يعيش منفيا بلا وطن؟ يقول: " في العام 1939 ولدنا معا، أنا والحرب العالمية الثانية"⁽²⁾ ففي فلسطين كانت الطفولة اليتيمة والحرمان من أول مظاهر الفرح بالوطن، لكن ذلك لم يكن مانعا من ممارسة الحياة التي عمل ناصر على تطويعها بما اكتسبه من حكايات الأم عن الثورة والثوار " فقد صبت الوالدة، رحمها الله، في القلب قبل الأذنين، حكايا

الثورات والثوار، وعن أدوار لوالدها وأهلي وأبناء قريتي" (3) والطفل الذي تربي في ربوع وطن كان يئن تحت وطأة الجراد المستعمر البريطاني، وبدلاً من التحرر منه، استبدل الانتداب البريطاني باستعمار استيطاني صهيوني، له شكل جديد بل شكل غير مسبوق؛ أطول احتلال في العصر الحديث، احتلال يرفض الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني صاحب الأرض في الوجود. وتراكت صور الظلم لتأخذ في نفس الشاعر منذ الطفولة شكلاً خاصاً استطاع أن يعبر عنه بعد ذلك في اتجاهين، الأول: ممارسة الثورة والنضال في مواجهة المحتل، الذي استولى على الأرض وهجر أهلها وقتل وشرذ وسجن وجرح، أما الاتجاه الثاني فكان بالكلمة المقاتلة شعراً ونثراً.

هل يختلف أديب ناصر عن الآخرين؟ هل يختلف عن ابن عمه كمال ناصر وعن الشعراء الذين قاتلوا معه وقبله وما زالوا يثيرون الهمم ويستنهضون الضمائر التي يجب أن تأخذ دورها في عملية التحرير؛ إذ لا أحد بعيد عن الهم، لا أحد يعفى من المسؤولية.

إن الربط بين عناصر الثورة والثائرين في كل مكان مهمة صعبة، إلا إذا استطاع الثائر أن يوصل بينهم جميعاً فكراً وممارسة وإبداعاً، والشاعر الفلسطيني "خاض الحياة وشارك في النضال، ومضى يقود الحركة الوطنية في وعي وإدراك ووضوح هدف، وإذا به ينتقل في الشكل من الوصف التقريري إلى دور التصوير الحي النامي للأحداث القائمة. وقد اتسع للقراع الفكري وامتزج به الحس بالفكر امتزاجاً لم تظهر فيه روح الازدواجية" (4) وبات دور المتقف عموماً مهماً ويختلف عن دور السياسي دائماً، لأن السياسي قد يفاوض أو يناور أو يحاور، إلا أن الأديب والشاعر لم يكن كذلك، الشعراء الفلسطينيون ينوبون بعضهم عن بعض في التعبير عن الفكرة أحياناً، فهذا عبد اللطيف عقل ينوب عنهم جميعاً حين قرر قائلاً: "أنا لست فرداً يفاوض، أو يتحدث مع الآخر الاحتلالي. أنا أفضح أنا أكشفه أنا أقاومه أنا أحرص عليه؛ لأنه نقيض حريتي ونقيض إبداعي ونقيض وجودي". (5)

في كلية بير زيت أنهى الشاعر أديب ناصر دراسته الثانوية ونهل من مياهها حب الوطن، وتشرب من عبق الدحنون انتماءه للأمة التي آمن برسالتها الخالدة، فمنذ نعومة أظفاره وعى المؤامرة وأطرافها المشبوهة، وحتى وهو يكمل دراسته الجامعية في القاهرة وبيروت تفتحت مداركه على حجم المأساة التي تحاك لهذه الأمة فخرج من بوتقة الوطنية الضيقة ليعايش الحالة

العامة للأمة العربية من محيطها إلى خليجها، ومما ساعده على فهم الواقع ومعرفة أبعاده وتتبع ملامح آفاقه، تخصصه في العلوم السياسية، حتى إذا ما عاد من غربته، فُتِح أبواب الكلام للشاعر على مصراعيه في إذاعة رام الله لينطلق الصوت الهادر معبرا عن الانتماء والأصالة، ومحذرا من القادم القاسي، ومؤنبا الذين تهاونوا في الدفاع عن فلسطين قلب الأمة النابض، تلك كانت المهمة المركزية للشاعر في تلك المرحلة، وذلك هو دور الشعر في المعركة.

مضى أديب ناصر من فلسطين بعدما وقعت جميعها في قبضة المحتل الصهيوني، ليعيش حياة اللجوء، معبرا عن أنفة اللاجئ الذي لم يطأطئ أبدا. ففي (جدة) حطت رحاله ليعمل سبع سنوات لم يكن عجافا؛ فقد أثمرن فكريا نيرا وكلمة معبرة عن صدق الانتماء للأمة التي رفض الشاعر أن يغادرها إلى مكان غير وطنه العربي الكبير الذي آمن بأنه وطن واحد. ثم عاد بعدها إلى بيروت التي عمل فيها إلى أن انتقل للعمل في بغداد، المحطة الأكثر حفا في بقاء الشاعر وتعبيره عن انتمائه، فقد ارتبط الشاعر فيها بأربع هنّ: **دجلة والفرات** اللذان شرب من مياههما فأصبح مرتبطا بهما ارتباطا أزليا، ثم **العراق** الذي انتمى إليه الشاعر عربيا خالصا، ثم **القائد صدام حسين** الذي تبادل معه الحب والصدقة والارتباط الفكري والأيدولوجي، ثم **بيئة الشعر** التي تتوالد متزايدة بغير انقطاع ولا عقم. وهذا الذي جعله يمكث فيه أكثر من ثلاثين عاما.

التقيته أول مرة في مقر إذاعة أم المعارك في بغداد التي كان يديرها والذي يمثل أكثر من مكان؛ فهو المكان الذي انطلق منه صدام حسين ومجموعته للبدء بالثورة على أقطاب النظام السابق، وتغيير العراق الذي كانت ملامحه قطرية في كثير من الجوانب ومرتهنة للأجنبي في بعضها، وبعيدة عن قضايا الأمة المصرية، الأمر الذي كان يدعو لإعادة العراق إلى حاضنته الأم (الوطن العربي الكبير)، ثم إنه المكان الذي كان يصدر منه الشاعر معبرا عن كل ما في أعماقه من صدق انتماء للأمة التي يعتز بأنه ابنها طوال سنوات حرب القادسية الثانية. ثم إن الشاعر كان قد منحه القائد صدام حسين - بمرسوم رئاسي - لقب شاعر أم المعارك الخالدة، وقلده وسام استحقاق إدارة الإذاعة. وخلال ذلك كله كان الشاعر مرتبطا بأقطاب الثورة الفلسطينية وممثليها في فلسطين وعمان وبيروت وبغداد وخصوصا ارتباطه بحزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية بجهة التحرير العربية.

وكنت من المتابعين لأشعاره ومن المستمعين الجيدين له؛ إذ كان مؤثراً على نحو غير مسبوق، بل كان الاستماع له يؤكد أن الكلمة تقاوم إلى جانب الرصاصة في ميادين الثورة وسوحها. وسوف يعرض هذا البحث مظاهر الانتماء للأمة ولقضاياها بوصفها من أبرز ملامح الثورة في شعر أديب ناصر، الذي ما زال يعيش في الأردن، بقلب يخفق منتظراً لحظة العودة إلى فلسطين وفيها بئر زيت فراش همّه الأبدى.

ثانياً: الأبعاد القومية في شعره

الثورة الفلسطينية ممثلة بمنظمة التحرير الفلسطينية خير من يعبر عن الأبعاد القومية، وشعراؤها خير من يعبرون عن همّ اللغة العربية بوصفها الرابط الثاني في القومية بعد الشعور بالانتماء، وذلك من خلال وعي الذات ووعي الآخر، والوقوف في صف المقاومة، والتعبير عنها شعوراً وفكراً وسلوكاً.

يقف هذا البحث عند شاعر مثل ظاهرة في شعر المقاومة في الشعر الفلسطيني المعاصر بوصفه جزءاً من الشعر العربي؛ فقد انعكس فكر التغيير الثوري من الثورة الفلسطينية إلى ربوع الوطن العربي الكبير، وإن كان التعبير عنه جاء عشوائياً وسقط بعضه في مزلق السياسيين الذين حرفوا الثورات الشعبية عن مساراتها القومية وأبعدها الإنسانية. ولهذا فسوف يعرض البحث لمظاهر الانتماء القومي في الثورة الفلسطينية، وأثر ذلك في الحفاظ على صاحبة الجلالة اللغة العربية.

1- الإيمان والولاء والانتماء:

لكلمة الانتماء دلالات فريدة لا تكاد نقف على واحدة منها إلا وقد امتدت إلى دلالات جديدة متوالدة غير منتهية، الأمر الذي يشير إلى أمرين، الأول: أن الانتماء لا يقف عند حدود واحدة ضيقة لا يتعداها، والثاني: أنها قيمة معنوية يمكن للإنسان أن يتماهى معها فيكونها وتكونه. لذا تختفي فيها أروقة الطرقات، فلا توعر ولا تقعر

ولا تحجر فيها، إنها الانتماء الذي يرجع إلى (نمي) وهو "النَّماء: الزيادة. نَمَى يَنْمِي نَمِيًا وَنُمِيًا وَنَمَاءً: زاد وكثر، وَنَمِيْتُ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ: رفَعته عليه. وَنَمِيْتُه إِلَى أَبِيهِ نَمِيًا وَنُمِيًا وَأَنْمِيْتُهُ: عَزَوته ونسبته. وَأَنْمَى هُوَ إِلَيْهِ: انتسب. وَفُلَانٌ يَنْمِي إِلَى حَسَبٍ وَيَنْتَمِي: يرتفع إليه. وَكُلُّ ارْتِفَاعٍ انْتِمَاءٌ..."⁽⁶⁾ والانتفاء يتطلب بالضرورة الولاء لأنه مرتبط به، وكلاهما يقومان على الإيمان.

فلسطين والعراق وأي جزء آخر من الوطن العربي الكبير هي أجزاء يكمل بعضها بعضاً، والولاء والانتماء لأي منها هو ولاء وانتماء لها كلها، لأنها وطن واحد، وهناك من ما زال يؤمن بأنها أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، بل إن العرب جميعاً يؤمنون بهذه الحقيقة التي يعبر عنها كل واحد بطريقته، لهذا فإننا نجد من ينتمي لأمتة وللمبادئ التي يحملها والتي هي في جوهرها قائمة على حب الوطن والأمة، فالانتماء يرتبط بشكل واضح وجلي بالولاء؛ والولاء شكل من أشكال التعبير عن الانتماء، وعندما نتحدث عن الأمة الواحدة فإننا نعني كل قضاياها العامة والخاصة، ودأب العرف المعاصر على عد قضية فلسطين القضية المركزية للأمة العربية، للأسباب المعروفة، ولعل أديب ناصر استطاع أن يعبر بالشعر والنثر عن ذلك الارتباط الوثيق بين الولاء والانتماء وفلسطين قضية العرب المركزية حين قال: "أما أنا... فكنت في المكان الطبيعي"⁽⁷⁾. عندما سئل: "هل المكان شرط لكي يكون الشاعر فلسطينياً؟ وهل المكان الشرط هو مسقط الرأس والإقامة الدائمة، أم مسقط الرأس والإقامة المقطوعة التي انتقلت إلى الجوار تارة وإلى المنافي البعيدة أو الشتات تارة أخرى؟ ثم هل الشاعر الفلسطيني هو ذلك الشاعر المتخصص في موضوع واحد هو فلسطين؟ وهل كون المرء شاعراً من فلسطين هو شيء أصعب من أن يكون شاعراً من مكان آخر؟ أنا من فلسطين، ومسقط رأسي القرية البلدة - بئر زيت - التي أصبحت في غيابي مدينة" ويربط بينها وبين المكان، أي مكان في وطن العرب له خصوصية، فمثلاً: "في القادسية الثانية التي كانت قادسية بحق، وكان العراق فيها البوابة الشرقية للوطن العربي، قامت الطائرات الصهيونية بأوامر مناحيم بيغن بضرب مفاعل تموز، وخرج الجنرال الدموي شارون في اجتياح وصل به إلى بيروت وإلى مخيمي صبرا وشاتيلا.. ثم وقع حصار المخيمات وتركزت الهجومات على البصرة لفتح الطريق إلى الخليج العربي، ثم احتلال الفاو للغرض نفسه، وكان يتم ذلك كله تحت شعار الطريق إلى القدس يمر ببغداد، وفي القادسية كنت أكثر فلسطينياً من أي وقت مضى.. إذ كيف تمر الطريق إلى القدس ببغداد؟ وكيف يقدم العدو الصهيوني السلاح لأصحاب ذلك الشعار؟ وكيف يضرب مفاعل تموز؟ وكيف تحدث تلك

الفضاعات ضد مخيمات بيروت.. ثم كيف تقع مدينة الشط والبحر الفاو في قبضة الاحتلال؟
وماذا يبقى من الأمل والمواعيد لي ولمدن البحر في فلسطين عكا وحيفا ويافا وعسقلان وغزة؟

كنت في القادسية .. وقد سال دم الشهيد الفلسطيني على ترابه:

ويوم لعلت بنادق العراق لم ينم

الأعظمية التي أحبها تزينت

والناس قد تجمعوا يودعون صبرهم وشوقهم للأرض والشيطان .

هل تبدأ الطريق من ذي قار .. من ميسان؟

تبدأ الطريق

نحن نبتدي وإن في الأحواز غزة ودير ياسين

في سهولها جنين

وحيث تنبت الجبال تسكن الخليل حيث ترحل الكئبان يتبعون بئر السبع .

وفي القادسية :

هذا أنا ما جئت ممتنعا

وما أعطيت غير السيف

وأنا بسيف القادسية قد ضربت

فلتعلم الدنيا بأني قد ولدت

وبأن حطيني هنا.. والأهل بئر زيت

وفي القادسية اصرخ من البصرة :

أيا صفد..

أأنت فوق تلکم الجبال یا صفا؟

وتلبسین ثوب لوزة وشال بیلسان؟

إنی أرى الجبال والودیان ثوبك الثلجی شال البیلسان

من بصره الذرى أراك من میسان

وفي القادسیة كانت یافا تختار جزیرتها أم الرصاص دفاعاً عن یافا:

یافا تختار جزیرتها

یافا تختار فیالقها

یافا تختار بیارقها

یافا تختار

فلتضرب یافا ضربتها

ولیصبح کل البحر الأبيض بصقتها فی وجه العار

وفي القادسیة:

كان الأقصى یركع بین یدی الله ویبکی

كان یغطي الخد الأیمن من خجل

ویقول لرب الناس:

أدیر الأیسر لك فالقوة لك

ومعی حجر الطفل المثخن فی المحراب

وجذع النخلة

كان الأقصى یركع بین یدی الله ویبکی

وفي القادسية الفاو لحظة تحريرها تقوم بزيارة سرية إلى يافا :

في تلك الليلة لم تغلق يافا شباك البحر

الصرخة هذا موعدها

والدمعة من بستان القسطل تقطف وردتها

أو تشعل شمعتها من جبل النار

قد أخذ البحر ويعطي البحر

وبيت الضيق بلاد

تلك كانت طريقة الشاعر في التعبير عن إيمانه وولائه وانتمائه، لهذه الأمة التي أحبها وعبر عن حبه لها بالدفاع عنها.

2- البطولة والفداء ومعانقة الشهداء:

وحين تصوير الفاو فلسطين وفلسطين كل جزء من الوطن العربي الكبير وتواصل مع المقطع السابق يقول الشاعر: "وتعود الفاو حرة ويندحر الاحتلال أليس في هذا غداء للأمل؟ أليس في هذا برهان على أن العرب يقدرّون على تحرير المغتصب من أراضيهم؟ لقد كان النصر حاسماً بعد القتال الملحمي الطويل وأجزم هنا أن أطفال الحجارة الأبطال نهلوا من ملامح العراق وصعدوا في انتصاره. أما أنا فكنت في المكان الطبيعي بفلسطينيتي من أجل العراق وبعراقيتي من أجل فلسطين وكان الشرط هو الاختيار الصحيح وهو الارتباط القوي وليس المكان وكان الفكر القومي هو الحصانة، والشعب المدرب والمجرب هو الضمانة وكانت التجربة غنية بالمعارك .. بالمواجهات.. بالعدوانات.. بالحصارات بالهموم العربية .. وبالطموحات .. وصولاً إلى ما نحن عليه من ثقة بالنفس ومن ثبات أسطوري ومن وضوح ما بعده وضوح في أهداف العدوان ومخططات المتآمرين.

نحن الآن في أم المعارك ونحن الآن في انتفاضتين، العراق وفلسطين معاً، والولايات المتحدة الأمريكية والصهيونية وكيانها معاً ولقد قالها الجنرال الأمريكي في العام 1991 للصهاينة : لقد ضربنا العراق من أجلكم وقالها العراق بـ 43 صاروخاً إنها من أجل فلسطين:

وكأنني اسمع في حطين الصوت الهادر وفلسطين

ورغم ذلك فالعلاقة بينهما كونهما حالة واحدة ليست اتكالية:

لسنا قشة عرقى

يشتعلون فننزف برقاً

ننزف برقاً .. يشتعلون

وقد يعطي الصورة الحقيقية للعلاقة بل للحالة الواحدة مطلع القصيدة التي بعنوان . القدس صدام:

نادت قلبي .. تناديه يلبيها معاً يجيشان ما فيه وما فيها

أو مطلع قصيدة زيارة:

امضي بأهلي لأهلي واحدٌ بدني .. وواحدٌ سوف يبقى واحداً وطني

أو البيت الأخير في القصيدة :

وها أجيء بجرحين .. فلا ظمأً إن العراق الفدا نهران ينزفني

وأنا في العراق لست "أنا" بل "نحن" :

نحن لم نذهب إلى الفاو .. إلى يافا ذهبنا

وبطيب "الطيب" سلمنا على شوق الجليل

و(بميسان) انتخبنا للخليل

و"وبزين القوس" زيتنا الفضاء

وامتشقنا "سيف سعد"

وامتشقنا كربلاء...

وأنا في العراق شاعر القوة والثقة بالنفس والثبات على الموقف:

شтан بين الشعارين وكنت فيها الأشعرا

حبرّ يوشوش، قد جرى ودمي العنيد تفجرا

إني قصيدة زفرتي الأولى أحاول منبرا

فالقدس أول ما أرى والقدس آخر ما أرى⁽⁸⁾

ولعل في هذه الصرخة العجيبة الأخيرة زفرة حرى من أجل فلسطين الأعلى، وهي تعميق للإيمان بأن أية بوصلة لا تشير إلى القدس مشبوهة، ولهذا فإن معانقة الشهداء هي الاستعداد للبطولة والفداء من أجل فلسطين.

3- عناصر التراث والتاريخ المشترك:

اللغة العربية صاحبة الجلالة هي سيدة عناصر التراث العربي المشترك والتاريخ الذي نعتز به، وهي الرابط القومي الأبرز، والدين الذي هو مصدر الاعتزاز والفخر يشكل أبرز مظاهر هذا التاريخ المشترك، والرابط بين اللغة والدين أمر محتوم، لأن القرآن الكريم نزل "بلسان عربي مبين"⁽⁹⁾، وقد ذهب الشعراء مذاهب شتى في هذا، إلا أنهم جميعا ظلوا يدورون في الفلك نفسه مهما تباعدت بهم الأهواء، أما أديب ناصر فقد اعتر بانتمائه لأمة الأديان ورسالتها الخالدة، فهو الذي يقول⁽¹⁰⁾:

أينَ قُدسٌ في القُدسِ.. والقُدسُ أقصى

ومسيحٌ من دمة العذراء؟

وهو الذي يعتز بقادتها التاريخيين، كهارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي وصادق حسين، وغيرهم⁽¹¹⁾:

ومند هارون لم ترجع سحابته كأن في مائها المحمول قرصانا

وفيهما يقول:

وقلت ليست (حلا) بغداد من أمرت القدس نادت وجرح القدس نادانا

وهو الذي يدحض الخرافة الأسطورة التاريخية للآخر، حين يقول⁽¹²⁾:

فبعد مئات السنين

وبعد ألوف السنين

(سأوصي)

ينادي حفيد فقير

على ظهر أم فقيرة

(ومن كل لون يجيء)

فلاشا لمن يرغبون

فلاشا ؟ لمن يذكرون

فلاشا ؟ فلاش.. فلاشا.. فلا

فلسطين نور العيون

وربما استفزه من سأله: هل ترى أن هناك جدوى لقصيدة المقاومة الآن؟ إذ أجب: الآن، هي ضرورة أكثر من أي وقت مضى. ماذا يريد العربي تحت الاحتلال؟ وماذا يريد في المخيمات، قريبا وبعيها؟، ماذا يريد في الشتات؟، ماذا تريد اللغة.. الأرض.. التراب.. شجرة الزيتون؟ كم هو ضروري الوعي، وصدق الانتماء، ورسوخ الموقف، بهذه الشروط أفهم قصيدة المقاومة.⁽¹³⁾ وإنني أرى أن نهايات القصائد في شعر أديب ناصر وحدها تستحق دراسة خاصة، ولعلي أتصدى لها فيما بعد.

4- مظاهر قومية عامة في شعر ناصر

لا نغالي إذا قلنا إن كل شعر أديب ناصر ينبض بحب العروبة أمة وقضايا ووطننا وتاريخا ومبادئ قومية ملتزمة ومنحازة لقضاياها "إن ناصر خطّ على مدار خمسين عاما "مسيرة شعرية قويّة وناضجة"، ولم "تغادر نصوصه الأرض، ولا الإنسان، وبقي معلقا بهما، مسكونا، وباحثا عن تحقق الحلم دون أن يخل ذلك ببناء قصيدة حدائثية، منفتحة على الآفاق الشعرية الحديثة"... إن ديوان "واحة الأشواق الحزينة"، الذي صدر في العام 1965، "تجربة شعرية مبشرة في ذلك الزمن، وفي معترك الشعراء الكبار، ومعترك الدروب التي تتأهب لتنتفح أمام التجديد في القصيدة العربية"... وتجربة ناصر تمتدّ، وتأخذ مسارها نحو غاياتها الفكرية والفنية معا، فديوانه "خطوات على طريق الآلام"، لم يجد من الشهرة ما نالته بقية الدواوين لظروف خارج إطار الشعر... لقد زواج الشاعر بين القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة، لكنّه كتب قصيدته، ذات الصوت الخاص، والملاحم الخاصة، والذاهبة في غاياتها إلى غاياتها، وكانت غاية الغايات ومنتهاها فلسطين، وكانت طريقها العروبة... إن اللغة "السهلة الممتنعة" التي يكتب بها أديب ناصر، جعلت خطاب القصيدة/ الشعر عنده "خطاب المثقف القومي الذي يريد أن يوصله، ويريد لشعره أن يكون معبرا عن أوجاعه القومية والوطنية، وكانت قصيدته تذهب في هذا إلى هناك، فلم يتعسف في غموض، ولم يسف في ربح وتصفيق، ولغته، لم تغمض، ولم تبرد حد الإسفاف"... بهذه اللغة، بنى ناصر قصيدته، وأراد لها أن تكون ذاهبة في قصدها، دائرة عليه، مرّة تأتي على شكل موال شجيّ حزين، ومرّة تأتي على شكل جلجلة، ومرات تأتي على شكل قراءة في المشهد الوطني والقومي، قراءة عميقة على شكل قصيدة. ويمكن ربط ذلك كله بقدرة الشاعر في رسم لوحة متحركة لحياة الطفولة، بكلمات قليلة بسيطة، وقليل من أدوات الربط، فساعة أو ساعتان من لهو الصغار، وأدوات اللعب، والضجيج، وأثر الضجيج في الحي، وخاتمة المطاف، خروج الأمهات لينهرن الأطفال فيتفرقوا، كما جاء في ديوانه الأول الصادر قبل ثمانية وأربعين عاما... ورأى النوايسة أنّ القصيدة عند ناصر توجّل الذاتي والداخل، وتصبغه، عندما يلح، بوجع الخارج، متمثّلا بديوانه الأخير "أبحث عنّي"، مستعرضا مقطوعة من قصيدة "دعاء" يقول الشاعر:

أرجوك ربّ الخلق/ بعد السجود والدموع/ قدّست/ أسماؤك الحسنی/ وقبل أن أفنى/ إن كنت
أستحق/ يا ألف ليت/ فلتكن/ وسادتي/ يا ربّ/ بير زيت⁽¹⁴⁾.

إن المفارقة في (امتطيت النهر/ وما ارتويت) هي ما يحيلنا إلى العيش في الصحراء
يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول، كما يفتح التأويل على تلك المسحة الدقيقة من استثمار
الطاقة الدلالية لكلمة (بير زيت) فهي، فضلا عن كونها مكانا، كلمة ذات دلالة تسربها من بير،
وزيت، وفي تضعيف دلالتها بكلمات زيتونة، وصخرة، وبيت، ودمعة، وماطرة، وهذا ما يوضّح
اللغة السهلة الممتعة.... وأكد أن اللغة عند ناصر مقدّرة، ليس فيها حشو أو مجانية، وإنما
ذاهبة في دلالاتها إلى غايتها، منسجمة مع مفهوم القصيدة والشعر، وموقف الشاعر، وهي
مؤشرات الرؤية عند شاعرنا، فالقصيدة قصد، والشعر شعور، وموقف الشاعر صليبه الذي يحمله
في حلّه وترحاله، ونجمته التي لا تؤشر إلا إلى مكان واحد، وغاية واحدة تنفرع عنها الأمكنة
والغايات... فناصر يتكئ على الوقائع التي يسند بها رؤيته، والوقائع الأكثر تكررا في نشيده
الممتد هي "الشهادة وشهداؤها"، فهو ينقل الرؤية إلى نهاياتها، ويتمثل بهؤلاء الشهداء، بوصفهم
الأمثلة التي امتلكت أقصى طاقات التعبير، فهم الثأر المقيم، وهم القادة الذين يرسمون الطريق،
ويعيدون بدمائهم البوصلة إلى شمالها الحقيقي، وجنوبها الحزين. أما الخطاب الساخر في ديوان
الشاعر "الزانية اكتملت" الذي يدور على الشهادة بوصفها الطريق، والسخرية من الساعين إلى
موادعة عدو ليس في قاموسه الموادعة، والسلم، فنقرأ مثلا في تقديمه لقصيدة (الشرطي أحمد
القسام): "يرجو الصهاينة أن يسمحوا له بزيارة قبر جدّه والصلاة أمامه".⁽¹⁵⁾

خلاصة

جاء البحث في صفحات طويلة، وأكثر بكثير مما ينبغي، ولكن المساحة الممنوحة لنا
قصيرة، فالواجب أن لا يزيد البحث عن خمس عشرة صفحة، لذا فقد اضطررت أن أعيد
اختصار البحث، ليكون ملتزما من حيث الكم، فجاء في هذه الصفحات مختصرا حتى لأخالني
قد بترته، وقد عرض للفكرة التي أراها باختصار، فتحدث في القسم الأول عن أديب ناصر ابن
الثورة الفلسطينية قولاً وعملاً ولم يفرض عليه ذلك فرضاً ولكنه اختياره الذي آمن به. ثم تحدث
عن مظاهر وأبعاد قومية في شعر أديب ناصر عبر من خلالها عن ثوريتها وانتمائه للثورة

الفلسطينية، التي تعبر من خلال ذلك كله عن انتمائها الأزلي للأمة العربية من المحيط إلى الخليج بتاريخها وتراثها المشترك وفي مقدمة جميع المشاعر التي قد يشار إليها يأتي حب الأمة والاعتزاز بالانتماء إليها في السراء والضراء، والتطلع الأرحب نحو تحقيق عزها وازدهارها وسؤدها ومجدها، برغم هذا الضعف الذي يحيق بها في هذا الوقت.

¹ - ينظر. علوش. موسى: شعراء بير زيت، مؤسسة الأسوار، عكا، 1982، (يذكر الباحث أن أديب ناصر ولد سنة 1938، والصحيح أنه ولد سنة 1939، كما يذكر هو نفسه)، ص32.

² جريدة الدستور الثقافي، حوار مع الشاعر أديب ناصر، حاوره هشام عودة، على موقع جريدة الدستور الثقافي، على الرابط <https://www.addustour.com/15537>

³ السابق نفسه.

⁴ - ياغي. عيد الرحمن . د: حياة الأدب الفلسطيني الحديث - من أول النهضة .. حتى النكبة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط/2، 1981، ص607.

⁵ - مجموعة: محاورات عقل، في الأدب والثقافة، المركز الثقافي الفلسطيني (بيت الشعر)، رام الله، فلسطين، ط/1، 1999، ص128.

⁶ - ابن منظور: لسان العرب، مادة (نمى)

⁷ - ينظر، عودة. هشام: أديب ناصر شاعر الموقف، دار دجلة، عمان، 2013، (ولم أتمكن من الحصول على الكتاب حتى هذا اليوم، وأخذت منه ما نشر عنه في الصحف الإلكترونية). ومنها موقع جريدة الغد على الرابط:

[/http://www.alghad.com/index.php](http://www.alghad.com/index.php)

⁸ - ينظر، السابق نفسه.

⁹ - الشعراء: 195.

¹⁰ - ناصر. أديب: من قصيدة سيدي يا عراق، على موقع اللغة العربية لغة القرآن، على الرابط:

www.drmosad.com/index422.htm

¹¹ - ناصر. أديب: من قصيدة (هدية كنت من نيسان) في الذكرى السادسة لاستشهاد صدام حسين، على موقع البصرة، على الرابط:

www.albasrah.net/ar_articles_2013/0113/adib_311212.htm

¹² ناصر: من قصيدة (فلاشا) على موقع الباطين، على الرابط:

www.albaptainprize.org/Encyclopedia/poet/0180.htm

¹³ - حوار مع الشاعر، العرب اليوم بتاريخ 2012/5/27، على الرابط:

<http://alarabalyawm.net/?p=117994>

¹⁴ ناصر. أديب: أبحث عني، دار دجلة للنشر، عمان، 2012، ص17.

¹⁵ - ينظر، النوايسة. حكمت: ندوة عن تجربة أديب ناصر الشعرية، جريدة الغد، على موقع جريدة الغد، على الرابط:

<http://www.alghad.com/index.php>